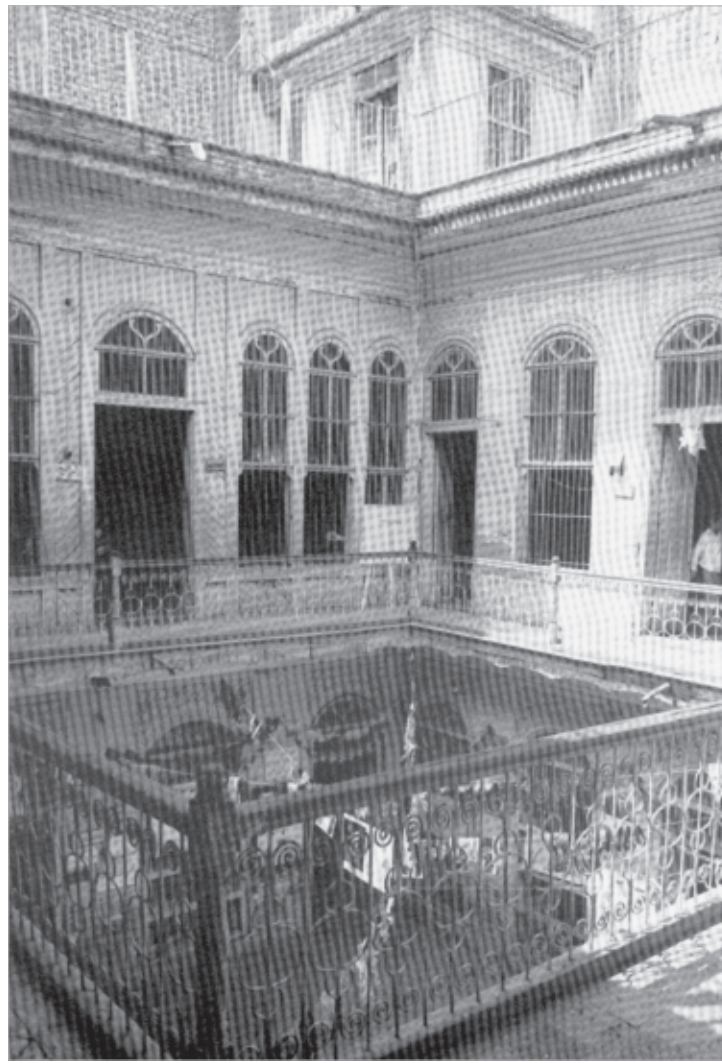


بيوت بغداد التقليدية (٢)

د. وليد احمد السيد



في البيت رقم واحد كان ترتيب العناصر الفراغية تنازلياً من حيث قيمتها التكاملية: الفناء والتارما (٩٦٦)، المطبخ (١،٦٦١)، المدخل (١،٧)، النوم (١،٧٧)، أما في البيت رقم ٢ فكانت النتائج كالتالي: الفناء ليس الأكثر تكاملية أما التارما (٨٨٣)، ثم الدرج (٩٣٥)، ثم الفناء والرواق المحيط (١،٢٤٧)، المدخل (١،٢٤٧)، النوم (١،٤)، المطبخ (١،٥٠٧)، التارما (١،٤١٦)، أما في البيت ٣ فكانت النتائج التالية: الفناء (٣٩١)، المدخل (١،١)، المطبخ والنوم (١،١٧١)، التارما (١،٤١٦)، أما في البيت ٤: الفناء والدرج (٦٢٢)، التارما (١،٦٢٢)، المدخل (٩٢٩)، ثم الفناء والتارما (١،٦٢٢)، النوم (١،٦٢٢)، المطبخ (١،٦٢٢)، الخوم (١،٦٢٢)، في البيت ٥: الفناء (٧٢٧)، النوم (١،٠٦)، التارما (١،١٢)، المدخل (١،١٧)، المطبخ (١،١٣)، في البيت ٦: الفناء (٨٧٦)، المدخل (١،١٧٢)، التارما (١،٤٤)، النوم (١،١٧٥)، المطبخ (١،١٧٦)، في البيت ٧: الفناء ليس الأكثر تكاملية بل الدرج والرواق المحيط (٨٨٣)، ثم الدرج المؤدي للسرداب (٩٢٩)، ثم الفناء والتارما (٩٧٥)، النوم (١،٢٢)، المطبخ (١،٢٨)، المدخل (١،٨٤).

من النتائج السابقة يسهل تبين مجموعة أولية من الملاحظات والتي تدل على وجود تباينات في الألية التي تجري بها الوظائف اليومية في كل من البيوت السبعة، وذلك بناء على التوزيعات التباينية ودور موقع كل من الفراغات ضمن البيت. فمن النتائج أعلاه نجد مثلاً أن الفناء والتارما يشتركان في الأهمية في البيتين ١ و ٧، حيث يسيطران على الحركة والانتقال من وإلى الفراغات الأخرى. فيما يتفرد الفناء لوحده بهذه السيطرة في البيوت ٣ و ٦ فقط.

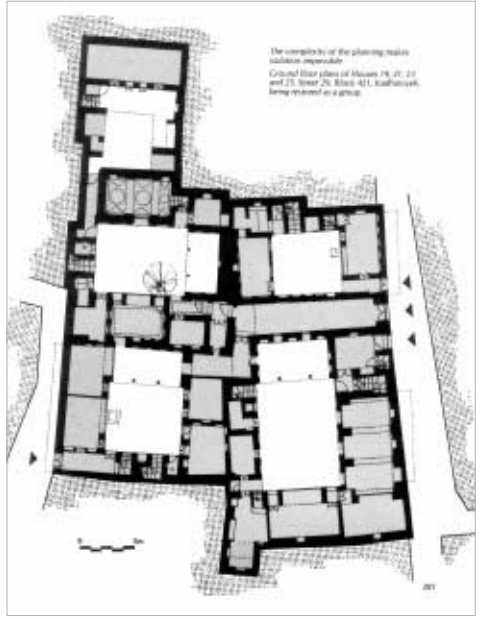
أما في البيت ٢ فنجد أن التارما هو الأكثر أهمية وسيطرة من الفناء نفسه، وكذلك نجد أن عناصر آخر يشترك مع الفناء في الأهمية ضمن البيت: ففي البيت ٢ مثلاً ترى أن الرواق المحيط بالفناء والذي يتحكم بمجموعة من الفراغات الأخرى هو بأهمية الفناء. أما في البيت ٤ فيشترك الدرج المؤدي للدرج العلوي مع الفناء بالأهمية. ولا تلاحظ ملاحظتين مهمتين أخريين في البيوت ٣ والبيت ٧ حيث الفناء والتارما معزولين وليسا بالأهمية كما في بقية البيوت.

هذه التحليلات تفتح الباب كما نذكر أمام دراسات اجتماعية جادة لفراغ والتحلل الفراغات البيئية والحضرية لا من خلال النظرة السطحية إنما تنظر للفراغ وتكويناته وعلاقاته، وبذا تكشف

رقمية عالية شريطة أن يكون مفتوحاً على ما حوله من فراغات وأن يكون حيوياً في الاتصال مع بقية عناصر المجموعة الفراغية (من صقر فصاعداً وتعتمد هذه القيمة على عدد الفراغات ضمن المنظومة وعمق المستويات الفراغية المختلفة) من العام انتهاء بالمستوى الخاص). وتفسر هذه المستويات بأنها مقدار النقلات من فراغ لآخر والتي يتطلبها الوصول إلى فراغ ما ضمن المنظومة. وبالعكس يكون الفراغ المنخفضة مقارنة للفراغ الأكثر حيوية بالمجموعة وهكذا. ومن هنا يمكن النظر إلى هذه الفراغات بطريقة مجردة واستقراء ما تعنيه هذه الأرقام المجردة، فليس يعد من ذلك يمكن تسيير وتفسير الأرقام اجتماعياً حين يتم ربطها بالوظيفة التي يؤديها الفراغ، وأساقط مفاهيم الخصوصية والعلاقة بين الزوار والقاطنين والعلاقة بين الجنسين والعلاقة بين الكبار والصغار وهكذا. هذا على مستوى البيت الواحد، أما على مستويات أخرى فيمكن أن يتم عقد دراسة مقارنة بين بيوت من مناطق مختلفة بنفس الأقليم أو بيوت بمدن مختلفة بنفس الحضارة أو بيوت بمدن من حضارات وأزمنة متباينة وهكذا. وبعد هذه المقدمة للتعريف بالأدوات التي سنستخدمها للأجابة على تساؤلاتنا، عوداً إلى موضوع تساؤلنا وهو البيت البغدادي. ومن أجل الإجابة اعتمدنا عينة من سبعة بيوت بغدادية تقليدية أجرينا عليها تطبيقات نظرية Space Syntax لتحليل قيم رقمية لكل من الفراغات التالية في البيت: الفناء والتارما والمطبخ والنوم والمدخل فوجدنا النتائج التالية: (نود الإشارة إلى أن القيم الرقمية التالية تمثل القيمة التكاملية المحسوبة بناء على معادلة رياضية تعتمد عدد الفراغات بالبيت وكذلك علاقة الفراغات بالأخرى ومدى انفتاحها ببعضها حسابياً لا بصرياً. ومن هنا فإن القيمة الأقل والتي تؤول للصفحة تكون أكبر بمعنى أن الفراغ يكون أكثر تكاملية وأهمية من حيث السيطرة في البيت بالنسبة لعلاقته بالفراغات الأخرى. وكذلك نود الإشارة إلى أن البيوت جميعها تحتوي أفضية).

الفراغات كل بالأخرى؟ بالنظر في النظريات السائدة القديمة والحديثة التي تعالج مفهوم الفراغ الحضري كنظرية Rob Krier وغيرها، أو دراسات الفلاسفة مثل Roger Scruton حول ماهية الفراغ، أو العديد من النظريات المشابهة لمفكرين في إطار العنصر والتصميم الحضري أمثال Kevin Lynch أو Al-exander أو Rosie من درس الفراغ الحضري لاستخلاص مميزات وعناصر التشكيل المعماري والتي انعكست على مفاهيم التصميم المعماري من جهة، كما فتحت الباب أمام الاجتهادات المختلفة لتفسير سلوكيات معينة دون أخرى أو لتفسير منهجية تصميم دون أخرى وهكذا. أو لمحاولة فهم الألية الوظيفية التي تتفاعل بها الأنشطة والعناصر المختلفة داخل الفراغات الحضرية. ولعل ما لم تتمكن هذه النظريات من تحقيقه وهو إيجاد صيغة ممكنة لدراسة الفراغات الحضرية بالنسبة لعلاقتها المختلفة بمنظومة واحدة لا كجزء متتابع كما يتم إدراكها بصرياً لدى التجول ضمن الفراغات على المستوى الإنساني. ويبدو مفيداً في هذا الإطار ما تقدمه واحدة من أحدث النظريات التي طورت مع نهاية الربع الأخير من القرن الماضي وهي نظرية Space Syntax وتعنى بدراسة وتقييم وفهم الفراغات لا لوحدها فقط، إنما بالنسبة لعلاقة كل من هذه الفراغات لكافة الفراغات الأخرى ضمن المنظومة الفراغية للبيت أو للمدينة، ومن أبرز الوسائل وهي جميعها رياضية تعتمد المعادلات الرياضية بطريقة منهجية منطقية علمية (راجع كتاب space is the machine: Bill Hillier, Cambridge University Press 1996 لفهم هذه النظرية التي لا يمكن بحال شرحها هنا أو استعراض تطبيقاتها). من أبرز هذه الوسائل لتقنين الفراغ وفهمه هي القيمة التي تدعى (قيمة التكامل أو Integration Value) وهي يمكن حسابها بالنسبة لقيمة رياضية لفراغ ما بالنسبة لموقعه ضمن المنظومة الفراغية ككل وكذلك بالنسبة لمدار انفتاحه وتحكمه بالحركة من وإلى الفراغات الأخرى. ومن هنا فإن الفراغ المتوسط مثلاً ضمن منظومة ما يأخذ قيمة

السائدة. ولا تخفى أهمية ادراك القيمة الفعلية لكل من العناصر الفراغية التي تشكل منظومة البيت الفراغية إذ أن من خلال ادراك هذه الألية التركيبية للبيت كمنظومة اجتماعية يمكن فتح الباب على مصادره أمام الدراسات الاجتماعية، ودراسة علم النفس والاجتماعي، والدراسات المعمارية على المستوى الفكري التصميمي، بالإضافة لما يمكننا ذلك من ادراك سلوكيات وخصائص المجتمع التي يعكسها البيت، إلى غير ذلك مما له علاقة بعلوم الاجتماع أو مزيد من الفهم العلمي الواعي للتصميم المعماري وللمفكر الذي ساد في العمارة العربية التقليدية. وهنا يبرز تساؤل مهم حول الألية والنتيجة التي يمكن أن تنتجها مرتبطة بهذا العنصر أو ذلك، وبرز التساؤل في نهاية المقال السابق حول دور كل من هذه العناصر وظيفياً وفراغياً ضمن التكوين العضوي للبيت بحيث لا تنتشر في الصياغة مفاهيم وأفكار مسبقة تعتمد الدراسات الوصفية



مدينة فاس (المغرب)



فناء ويقع على طابقين، وتشتهر فيها كذلك مدرسة العطارين والتي تعود للقرن الرابع عشر وتقع بالقرب من المركز الروحي للمدينة حيث جامع القرويين، وقد أطلق عليها هذا الاسم لوقوعها بالقرب من السوق التقليدي حيث تباع العطور والتوابل. وقد تم الاهتمام بالمدارس في المدينة من قبل السلاطين على مدى الفترات الإسلامية المختلفة لما لها من أهمية في تدريس المذهب السني في مواجهة المذاهب الصوفية المنتشرة آنذاك. وتعد هذه المدرسة من أشهر المباني في المدينة حيث صحنها المستطيل والذي يحاط بالأروقة بالإضافة إلى جمال تزييناتها الهندسية الزخرفية البديعة الملوثة باستعمال الزليج.

أما جامع القرويين فيعد واحداً من أقدم الجامعات العالمية المعروفة وكذلك أضخم جامع في القارة الإفريقية على الإطلاق. وقد بنته السيدة فاطمة ابنة تاجر قيرواني من هاجر للمدينة في العام ٨٥٧ م. وقد نشأ كمجمع علمي حيث احاطت به المدارس، وغدا منارة رئيسية للعلم في القرون التالية على مستوى العالم القديم قاطبة، وتحتوي المدينة على جامع الأندلسيين الذي يشق اسمه سياسياً من مجموعة من المهاجرين من الأندلس في القرن التاسع الميلادي حيث استوطنوا الحي الذي يقع به الجامع. وهناك العديد من المباني ذات القيمة التراثية كقنطرة التجارين وغيرها مما تحفل به هذه المدينة العريقة.

ومدينة فاس حظيت في العصور الحديثة بما تستحقه كمدنية ذات تاريخ وسمة عمرانية متميزة من الدراسات والأبحاث ومحاولات الحفاظ الحادة، والتي لم يكن بالإمكان لهذه المحاولات إلا أن تنظر للمدينة ككل لا كجزء أو ميان. يضاف إلى ذلك أنها تشتهر بالحرف التقليدية المتوارثة عبر الأجيال وهي مما كان موضع اهتمام التي تشكل العمود الأساسي الخفي لهذه المدينة الخضرنة التي شهدت عصوراً مجيدة من سيادة العلم في العالم العربي الإسلامي.

أخبار العمارة



لوئار - الرباط:

اشتهرت مدينة فاس المغربية كواحدة من المدن التقليدية العربية الغنية بالتراث والمباني الأنيقة ذات الطابع المتميز. وتتمتع هذه المدينة ذات التاريخ العربي الإسلامي الطويل من طبيعة تكوين نسيجها العمراني وكذلك من نمطية المباني إضافة إلى بعض المآثر المعمارية المتميزة الموروثة عبر فترات نمو المدينة الطويلة.

وقد نشأت المدينة بهجرة قبائل عربية مسلمة من مدينة القيروان التونسية في القرن العاشر الميلادي هرباً من نزوح بعض القبائل البدوية. أما الفتحة الأخرى التي يعزى إليها تأسيس المجتمع الحضري بالمدينة فهم جماعة انتقلت من قرطبة بالأندلس بعد أن تم طردهم من قبل الأمويين أثناء الصراع مع الفاطميين. وقد سكت كل من هاتين القبيلتين على صفة من صفتي النهج بالمدينة وأسهمت عبر الفترات التالية في جعل مدينة فاس واحدة من نقاط الإشعاع المعرفي والعلمي في العالم القديم، حيث اعتبرت عاصمة الأقليم آنذاك ولم يتخلل ذلك إلا فترات قليلة استولت فيها مراكش على هذه السيادة.

ومن ناحية معمارية عمرانية تشتهر المدينة بنسجها العمراني الذي يسود في أركانها من مدن العصور الوسطى العربية الإسلامية حيث الشوارع والطرق الضيقة المتعرجة، وحيث القباب الرئيسية التي تتفرع حتى الطرقات الخاصة.

أما عمرانياً فتحتوي العديد من المباني التي تتنوع بين السكنية والخاصة والعام منها. فهناك مجموعة من البيوت التقليدية كبيت العلمي والذي بني في القرن السابع عشر والذي يتمحور حول فناء وسطي، وكذلك قصر الأزرق والذي يقع بالقرب من جامع القرويين ويحتوي شأته شأن البيوت التقليدية في فاس على

راعي التصميم العلاقة المدروسة المتوازنة بين الكتلة والفراغات الداخلية وبين المناطق الخارجية المفتوحة وذلك بتوفير عناصر وأروقة وساحات بعضها مشجر والأخر ذات تيليط يسمح بالصلاة فيه مما يوفر أجواء وادعة هادئة تبعث على الطمأنينة والسكينة التي تتحقق من خلال العبادة والدرس.

أما رمزية العلاقة بين الأقفى والعمودي فقد حققها المعماري الدكتور مكية من خلال المئذنة التي ترتفع للسما رمزية العلاقة بين الإنسان والكون والتأمل، وكان في استعمال المصمم خمسة مآذن تنتشر على أرجاء المشروع مما يرمز للآركان الخمسة للإسلام.

وعدا عن هذه العلاقات الرمزية فقد كان تصميم المآذن جميلاً بسيطاً مبتكراً، كذلك كانت القبة الرئيسية التي تتم عن فكرة مبتكرة في تحقيق توازن آخر بين الكتلة والفراغ وذلك بتخفيف وطأة ضخامة الكتلة بتخريفها بأشكال هندسية مع توفير العصب الرئيس للكتلة كما تبدو ليلاً كقنديل منار ينبعث نور منه، وهكذا نجد نموذجاً معاصراً للعمارة المسجدية التي تربط العلم بالدين في بلد عربي مسلم هو دولة عمان الشقيقة.



حيث يجسد المجموعة المعمارية التي تحوي المسجد كجماعة لا يمكن الصلاة والعبادة فقط، بل بعيد للمسجد دور التكامل في حياة المسلم كؤسسة جامعية أكاديمية تعليمية إلى جانب التعبد والصلاة، وذلك كما نرى في جامعة الأزهر والأمثلة العديدة من العمارة التقليدية.

ويقع بناء المسجد الجامع على أرض مساحتها ٤٦٦ متراً مربعاً، وتضم مرافق المسجد المهمة معها لعلوم الدين، بالإضافة إلى مكتبة وقاعات للدرس والمحاضرات. أما المسجد الرئيس وقاعة الصلاة فيبلغ من السعة بحيث يتسع لحوالي ٦٥٠٠ مصل من الرجال وأيضاً حوالي ٧٥٠ مصلية.

ويلحق بالفراغ الرئيس المسجد ساحات خارجية ومرافق خدمية. أما الساحات الداخلية والخارجية والأروقة فتتسع معاً لحوالي عشرين ألف مصل ومصلية، مما يدل على مدى ضخامة المسجد.

وقد استغرق بناء وتنفيذ الجامع ست سنوات إذ بوشر بتنفيذ المسجد في العام ١٩٩٥ م، حيث تم اختيار الدكتور محمد صالح مكية مع مجموعة Quad من لندن وتصميمه الفائز. ويعتبر البناء من التميز بما كان أنه يدوي - بالإضافة إلى تكامل الكتل وانسجامها هندسياً - تفاصيل دقيقة تتم عن متابعة وتمحيص من قبل المعماري المصمم، وهي من أبرز خصائص أسلوب الدكتور محمد مكية حيث

